تحديات تربوية في زمن العولمة
د. نجلاء نصير بشور
محاضرة رئيسية، ألقيت في مؤسسة الحريري
ديسمبر 2006
"التربية هي ما يبقى بعد أن ننسى كل ما درسناه"

في إحدى المدارس الكبرى المعروفة في بيروت قاطع تلميذ أستاذ الفيزياء مصححاً معلوماته، مضيفاً إلى كتابه المدرسي معلومات استقاها من مصدر آخر، من الانترنيت. بينما ارتبك الأستاذ حار التلميذ أيفرح لأنه فاق أستاذه، أم يحزن لأنه اكتشف أن المدرسة تعلمه أقل من مصدره الآخر للمعلومات.

إن هذه الحادثة إنما تدل دلالة واضحة إلى التحدي الذي يواجهه المربي في بلادنا معلماً كان أم والداً. فوسائل الاتصال الجديدة وانفتاحها اللامحدود، يجعل من الصعب حصر ما يمكن أن يتعلمه التلميذ من مفاهيم وقيم ومهارات. لاسيما أن كثيراً مما يقدم عبر هذه الوسائل لا يصب بل يتناقض مع أهداف التربية في بلادنا والتي توضع على أساسها برامج التعليم.

ويجعل لأول مرة في تاريخنا المرجعية التربوية خارج المدرسة والبيت معاً. مما يضعف من تأثيرنا في تربية أبنائنا بل ويجعل جهود وزارات التربية في صياغة الأهداف التربوية وتصوراتها لمواصفات مواطن الغد، في مهب الريح. فأمام وسائل الإعلام والاتصال الحديثة والجذابة وقدرتها في التأثير على أبنائنا بات من الضروري على المدرسة أولاً والدولة ثانياً إعادة النظر في أهداف التربية. بحيث تصبح تنمية الشخصية بأبعادها المختلفة أهم من كل المعلومات والمفاهيم التي تتضمنها الكتب المدرسية. وتضحي تنمية المهارات الذهنية والاجتماعية هي الأساس. ويصبح الهدف الأهم حصانة داخلية لأبنائنا تحميهم من القيم التي يتعرضون لها والتي تتنافى مع أهدافنا وكما تحصنهم من الانجراف ابتعادا عن ثقافتنا ومجتمعاتنا وقضايانا. وفي نفس الوقت تعزز الجوانب الإيجابية من المعلومات والمفاهيم المستقاة. ويصبح إكساب أطفالنا قيمنا الثقافية هي الضمانة الحقيقية لمواجهة أي نوع من المعلومات أو المفاهيم أو القيم . لاسيما حين ننمي لديهم حب لغتنا وثقافتنا ونبذ تلك الجوانب منها التي تعيق التطور.

إن الإمكانات الهائلة التي توفرها ثورة اتصالات التي نعيشها اليوم فرضت تغييراً في أسلوب حياتنا بشكل جذري بما فيه أسلوب العمل وبشكل خاص طرائق التعليم والتعلم. من البريد الإلكتروني الذي سهل الاتصال بين الناس بكلفة بسيطة، إلى التجارة الإلكترونية إلى التعليم عن بعد فشبكة الإنترنت.إن هذا التطور الهائل في وسائل الاتصالات أتاح الفرصة لتفاعل الثقافي بين المجتمعات المختلفة ولنشر المعلومات بكافة أشكالها وأنواعها وجعلها بمتناول الجميع. إلا أن هذا الأمر بقدر ما هو مفيد بقدر ما يشكل مصدراً للقلق حيث أنه يشكل خطورة على المجتمعات النامية مثل المجتمع العربي من حيث نشر مفاهيم وقيم قد تتعارض مع قيمنا وثقافتنا ومفاهيمنا الاجتماعية.

لذا علينا أن نتعامل مع هذا الانفتاح المعلوماتي بتعقل وحذر بحيث نشجع ونهيئ أطفالنا ومواطنينا للاستفادة من الكم الهائل من المعلومات المتاحة وفي نفس الوقت المحافظة على ثقافتنا وقيمنا وهويتنا الوطنية والقومية.

الأمر الذي يتطلب منا أن نسعى إلى نشر ثقافتنا عبر وسائل الاتصالات إلى كافة المجتمعات لتعريف العالم بها وبالتالي المحافظة على الهوية العربية وإعطاءها مكانة التي تستحقها بين ثقافات المجتمعات الأخرى.

إن لهذا الزمن سمات تكمن فيها ازدواجيات متناقضة، لايتمكن من تجييرها لمصلحته إلا الكفوء من بين البشر أفراداً كانوا أم جماعات. فالبحث العلمي المتمثل بالهندسة الوراثية وعلم الجينات والاستنساخ بقدر ما يمكن الاستفادة منه لعلاج الإنسان والارتقاء بنوعية حياته بقدر ما يمكن استخدامه فيما يهدد الإنسانية بقيمها ووجودها. وإمكانيات الاتصال والتواصل المفتوحة من خلال وسائل الإعلام لاسيما المرئية منها،التلفزيون والحاسوب والإنترنت بقدر ما تقرب المسافات بين الناس أفراداً وشعوباً وتسهل لهم الوصول إلى المعلومات ومشاهدة الأحداث في أي زمان أو مكان تحصل، بقدر ما يمكن أن يكون لها تأثير سلبي بحيث يمكن لناقل الحدث والمعلومة أن يلعب دوراً أساسياً في تشكيل تفكير المتلقي وآرائه واهتماماته كما يريد وبشكل كثيراً ما يكون مغايراً للحقيقة. أما الحرية فبقدر ما باتت حقاً مقدساً من حقوق الشعوب والأفراد، بقدر ما تنتهك باسمها الحريات لاسيما في بلادنا. أنها المعايير المزدوجة التي تشكل سمة عصر العولمة أي عصر ما بعد الحداثة. إلى ذلك نواجه مفاهيم وطروحات باسم العولمة تنتشر بين المجتمعات وتنفذ إلى التربية ومناهجها بل وتصبح مسلمات تتسابق هذه المجتمعات إلى تطبيقها. دون تساؤل حول ملاءمتها لتلك المجتمعات نفسها. فمثلاً حل النزاعات سلمياً والتسامح وقبول الآخر كلها مفاهيم ترتبط بها مهارات، هل ناقشنا معانيها بالنسبة لنا، أي هل يمكن تطبيقها على كل أنواع االنزاعات، بدون تمييز؟ هل يمكن التحرر من الاحتلال الأجنبي باتباع هذا الأسلوب ولنا في التاريخ قوانين وتجارب تدل على العكس؟ ثم هل اتبع المحتلون أصلاً هذه المفاهيم وهل يتمتعون بمهاراتها؟ وهم أكثر المنادين بها أصلاً. هل كان يمكن للبنان مثلاً أن يحرر أرضه لو أنه اتبع هذه الأساليب؟ و بالمقابل ماكان يمكن للبنان أن يرتاح من الحرب الأهلية إلا بالحوار والتسامح وقبول الآخر. إذا علينا تحديد هذه المفاهيم ،قبل إقحامها في حياتنا ومناهجنا كمسلمات. فسمات هذا الزمن إذن تحتاج إلى أفراد بل مجتمعات كفؤة علمياً متماسكة ثقافياً ذات إرادة وثقة بالنفس للتعامل معها بجدارة.

إنها مسؤولية كبيرة للتربية وتحدٍ أكبر للتربويين.

ولهذا التحدي بعدين أضمنها سؤالين يشكل كل منهما تحدياً:

أولهما: أي مواطن ننمي؟

ثانيهما: أي قدوة نقدم؟

على ضوء ما ذكرت ،أحاول هنا أن أشارككم التفكير في هذين التحدين وطرح تساؤلات وليس حلولاً حول مفاهيم ومبادئ في تربية توجه ممارستنا كتربويين ومعلمين تحديداً.

وأبدأ بتساؤل حول التحدي الأول، هل نسعى لتنمية شخص يعيش في أي بلد من العالم، أم مواطن يعيش في بلده ويسهم في بنائه ؟ وإذا كان الجواب مواطناً وليس شخصاً فأي مواطن نسعى لننمي؟

فالمواطن الذي يمكن أن يتعامل بكفاءة مع زمن ما بعد الحداثة ويواجه بجدارة التهديدات التي تطال مجتمعنا وهويتنا والتي تشكل إحدى إفرازاتها ، هو ذلك المواطن المتمتع بالتفكير المستقل، العلمي والنقدي والإبداعي، والساعي للبحث عن الحقيقة،

المبادر والجريء، المحصن بالهوية الثقافية الواضحة المعالم، والملتزم بقضايا وطنه المرتبطة بالتحرر والتقدم والمستعد لتحمل مسؤوليته تجاهها. انه كلٌ متكامل.
المطلوب طلاب لديهم أهداف للتعلم، يعرفون كيف ومتى يسألون، يدركون متى هناك حاجة إلى معلومات إضافية، ونوع المعارف المطلوبة، يعرفون كيف يجدون المعلومات وكيف ينظمونها ، ويقدرون على توليد عدد من الحلول للمشكلات الإنسانية في وطنهم ومجتمعهم وكيفية تقييمها.
نحن بحاجة إذن إلى أشخاص يمتلكون مهارات البحث والتفكير النقدي والإبداعي. وربما كانت التربية التي تنمي هذه المهارات هي الطريقة الأقدر على نمو جيل يتمتع بهذه الصفات ويؤدي دوره المبدع في مجتمعه. مما يتطلب تغييراً في مقاربات التعليم يتجه نحوالتركيز ليس فقط على **ماذا نتعلم ولكن كيف نتعلم**.
المطلوب جيل متطور ذهنياً مرتبط ثقافياً بمجتمعه ليقوم بالتغيير. فالارتباط بالثقافة والهوية هو شرط لهذا التغيير والتزام الفرد بقضايا مجتمعه يعطيه الدافع لتطوير نفسه ومجتمعه على حد سواء.
إن تنمية مهارات التفكير النقدي والإبداعي يحتاج قبل كل شيء إلى قناعة المعلم بها وإلى مناخ عام في الصف بل المدرسة يسهم في نموها. إنه هو ذلك المناخ الذي يضمن الأمان النفسي والحرية الفكرية داخل بيئة يحترم الأفراد فيها بعضهم البعض كأشخاص ذوي قيمة غير محدودة. يمكن للمعلم أن يجعل صفوفه يتسم بالحيوية الفكرية من خلال: إتخاذ أحكام وقرارات على أساس المحبة والتفهم، ومن خلال تقدير الأصالة والصدق، ومن خلال إستخدام الخلافات في الرأي كحالات تعليمية تستدعي التحليل. وفي توفير الجو الملائم من القبول والتشجيع للغرابة والطرافة وما هو خارج القوانين والمألوف وفي توفير نشاطات ذات معنى لطلابهم.
فنمومهارات البحث والتفكير النقدي والإبداعي يحتاج إلى جو محفز مريح يساعد على التفكير المستقل سعياً وراء المعرفة، وعلى الاختبار دون قيود لا سيما منها قيود التقييم. فإن مجرد أن ترد في ذهن الفرد أنه موضع تقييم لعمله وأفكاره، تحد من إمكانية الفعل الإبداعي. لخوف الفرد من عدم قبول الآخرين لجديده أو لعدم إلتزامه بما هو مرغوب أو معتاد من سلوك مقنن المعتاده طلابنا.
إنه مناخ يعزز شعور الطلاب بالنجاح والدعم والتقدير والحيوية والفرح. ويوفر لهم الفرص لتوجيه العملية التعليمية بأنفسهم وانغماسهم العاطفي بها من خلال عمل ذي معنى, مفتوح بدون قيود يتضمن مسائل تتحدى عقلهم. حيث يقوم الطلاب بتحمل مسؤولية وإتخاذ قرارات ، والمبادرة للبحث ، والتعلم بمبادرة ذاتية وبتعاون مع طلاب آخرين ومع معلمين ومع أعضاء في المجتمع الواسع وحيث يعمل المعلمون سوياً، كموجهين و كمساعدين وحيث يشارك الأهل.
غير أن أطفالنا والكبار يتعلمون وينمون في اتجاه ما ينال مكافأة. وفي مدارسنا يكافئ الطلاب إذا لم يخطئوا أو كانوا مهذبين، نظيفين ، متعاونين، بمعنى آخر عندما يتطابق سلوكهم مع السلوك المطلوب. وقلما نهتم بمكافأة الأفكار الجديدة غير التقليدية والخارجة عن المألوف.إن تنميةمهارات البحث والتفكير النقدي والإبداعي يتطلب تقدير أفكار الأطفال المبدعة والنقدية ومساعدتهم على اختبار هذه الأفكار مقابل ما يعرفوه. وعلى

مناقشة مسلمات بناء على ما يتوصلوا إليه من بحث فلعلّنا نؤسس في الصف بدل الطاعة السلبية المحددة للتفكير عادة الاختبار،اختبار الأفكار الجديدة والتعلم المستقل الذي يدوم مدى الحياة. إن عدد الأفكار الجديدة يمكن زيادتها إذا قدّر المعلمون قيمتها وتجاوبوا معها بطريقة إيجابية.صحيح أنه من السهل اتباع التقليد والطرق المؤسسية والمتبعة،إلا أنّ المعلمون الذين يرضون بأن يدعوا الطلاب يبحثون معتمدين طرقاً غير تقليدية ويجربون أفكارهم بشكل عملي، يقدمون تعزيزاً إيجابياً يغذي المواهب المبدعة بينهم. وهذا يجعل المعلمين يجدون أنفسهم محظوظين بمساهمات أكثر متعة وحيوية من قبل مجموعة الأطفال.

فهل يرى المعلم صورة هذا المواطن بشموليتها؟ إن تعليم أي مادة لايكتمل إلا برؤيتها ضمن سياق المنهج ككل الهادف إلى تنمية المواطن ككل. فالمعلم ليس عامل مصنع لا يعنيه سوى جزءاً محدداً يعمل على إنجازه في عملية تصنيع معقدة تقسم إلى أجزاء ومراحل. فالتصنيع يمكن تجزئته والناتج الأخير يظهر بعد جمع كافة الأجزاء لتصبح منتجاً كاملا. أما المعلم فهو معني بتربية إنسان متكامل لا يتجزأ ليعيش في مجتمع أيضاً لا يتجزأ، بثقافته وقضاياه. غير أن معظم معلمينا لاسيما في الصفوف الأعلى يحصرون عملهم بمادتهم ولا يسعون إلى ربطها مع المواد الأخرى من ناحية أو مع الحياة العملية من ناحية أخرى. فهناك بشكلٍ عام انفصال تام بين ما يتعلمه التلميذ في صف الجغرافية أو اللغة أو العلوم أو الرياضيات. كما أن هناك انفصال تام بين المادة التي يتعلمونها والحياة العملية. بمعنى آخر إن هناك انفصام إلى حدٍ بعيد بين التربية وبين الوطن والمواطنية.

فمالم يرى المعلم الصورة الشاملة لنوع المواطن الذي نريد ويربط مادته بغيرها من المواد، وبالحياة العملية والمواطنية، فلن يكون له تأثير يذكر على شخصية الطالب بل يكون تأثيره محصوراً فقط في مادة لايرى الطالب فيها فائدة في حياته العملية ولا تؤثر في جعله أكثر ارتباطاً بوطنه. كما أن المعلم لن يتمكن من تنمية قدرات الطالب ليستخدمها في كافة مجالات دراسته وحياته. فالطالب والمواطن الكفوء هو من يستخدم مهارات التفكير العملي في العلوم بقدر ما يستخدمها في الرياضيات والجغرافيا والتاريخ وحل مشكلاته اليومية، وهو من يستخدم النقد في الأدب بقدر ما يستخدمه في حل مسائل الرياضيات والعلوم، ومن ثم في العمل والتعامل مع الناس. وما لم يعتد الطالب في المدرسة أن يبحث عن الحقيقة في كافة المجالات ، من مصادر متعددة وأن يعرف كيف يقارن المصادر ويتحرى صدقيتها، فلن يعرف كيف يتعامل مع الأخبار والمعلومات التي يتعرض لها في حياته اليومية والوطنية. أو أن ينظر بعين ناقدة إليها لاسيما تلك الآتية عبر الآلات الحديثة الجذابة التلفزيون والكمبيوتر.

يعتقد الكثيرون خطأً بأن تنمية المواطن تنحصر في المواد الاجتماعية، في الجغرافية والتاريخ وكذلك في الأدب العربي لاغير. وأن لا الفن ولا العلم له علاقة بالثقافة والتراث. ونسأل هل نبذل جهداً لتعريف طلابنا بخصائص الفن العربي والإسلامي، والشرقي بالأساس. وهل نعلمهم عند دراسة العلوم والرياضيات مساهمات العلماء والرياضيين العرب فيها. نبدو في هذا وغيره وكأننا نعيش عكس التيار فالعالم يتجه اليوم نحو ما يسمى أنسنة الرياضيات والعلوم. أي ربط النظريات الرياضية والمكتشفات العلمية بالأشخاص

الذين اكتشفوها، والتعرف إلى شخصياتهم وحياتهم والثقافة التي ينتمون إليها، كجزء من دراسة الرياضيات والعلوم. وكم أثارني أحد تلامذتي في الجامعة والذي يدرِّس الرياضيات اليوم في إحدى الجامعات اللبنانية المرموقة، أنه لم يعرف شيئاً عن مساهمات العرب في عالم الرياضيات إلا عندما ذهب إلى جامعة غربية ليتابع دراسته العليا فيها. ففوجئ بها. وأن فخره بهذه الإسهامات يوازي شعوره بالغضب تجاه هذه الثغرة في تربيه وهذا الإهمال من المربين في بلادنا.

والسؤال هنا من المسؤول أهو المعلم أم صاحب القرار أم الرغبة الحثيثة لاستيراد مضامين للتربية من الغرب والانبهار بها واعتبارها مقياس الجودة؟ المهم بالنسبة لنا أن الرياضيات والعلوم إذن ليست مواد محايدة، إنما لها مضامين ثقافية، مالم يعي إليها المعلمون فإنها تصبح مادة تنمي فرداً، لا أريد أن أقول مغترباً ولكنه بالتأكيد ليس مواطناً.

وحتى لو قبلنا بحصر المواطنية والثقافة في العلوم الاجتماعية والأدب العربي. هل نطرح فعلاً من خلالها القضايا الحقيقية التي نواجهها كمجتمعات تسعى إلى التحرر والتقدم؟ أم يفاجأ الطلاب بمشكلة تتفجر هنا وهجمة هناك، ولا يجدون لهم مرجعاً إلا محطات التلفزة التي لا نتحكم بمصادرها، والتي توجه المشاهد نحو مصالحها، فمصلحتنا آخر همومها إن لم تكن مناقضة لها. والطالب الذي يتابع تعليمه في الخارج يجد نفسه لا يملك سوى العاطفة يدافع بها عن قضاياه، فلا يقنع بها أحداً، حيث أنه يفتقد المعلومات الكافية والحجج المنطقية ليقنع الآخرين بعدالة قضاياه.

و لا توجه مادة الجغرافيا التي تدرس الطلاب لقياس إمكانيات بلادنا وثرواتها ومدى استفادتنا نحن منها مقابل إمكانيات الاستفادة لو كان لنا قرارنا المستقل. عمليات حسابية بسيطة تدخل في صلب المعلومات الضرورية للمواطنية.

كما لا تتعرض كتب التاريخ بشكل كاف للصفحات المشرقة من المقاومة التي خاضها العرب ضد الغزاة على مر العصور، ولا تحلل أبعادها وأسباب نجاحها أو فشلها ليتعلم منها مواطن الغد كما يتعلم مواطنو الدول المتقدمة من تاريخهم. بل أننا ننطلق في عرضنا لتاريخنا من المفاهيم الغربية وننظر إليه بعيونهم ونعتمد حتى تسميتهم التي لا تتماشى مع تاريخنا. فعصر النهضة مثلاً الذي بدأ في أوروبا في القرن الخامس عشر شهد بداية عصر الانحطاط في بلادنا، بينما في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش عصور انحطاطها وقرونها الوسطى وأيامها السوداء كنا في بلادنا ننعم بمرحلة نهضة وانطلاق وتقدم. ولكننا نعتمد التسميات الغربية وكأننا بذلك نلغي أنفسنا وحضارتنا. فأي مواطن وأي ثقة بالنفس ننمي في أبنائنا؟

و للغة الأم في بلادنا وبين أسرنا قضية وقصة مختلفة، تحتاج إلى ندوات بل إلى حملة لحبها و للحفاظ عليها. ولكن لا بد هنا من الإشارة إلى أنه بينما يتوجه العالم شرقا وغربا، متقدما وناميا، نحو التأكيد على أهمية اللغة الأم- اللغة الأولى ليس فقط لتكوين الهوية الثقافية وتعزيز الثقة بالنفس ولتماسك وتقدم المجتمع بل للتعلم أيضا. بحيث أنها مألوفة لدى الطفل و يتمكن منها ويسهل عليه استخدامها كأداة للمعرفة والتعلم الطفل .

تتوجه العديد من المدارس في لبنان إلى ما هو عكس التيار حيث يصل بهم الأمر أحيانا إلى حد إلغاء اللغة الأم من الصف في المراحل الأولى للتعليم. وحجة المعلمات أنهن يجدن صعوبة في التواصل مع الأطفال وإيصال المفاهيم لهم باللغة الأجنبية بينما يمكن

ذلك بسهولة باللغة الأم. مما يجعل المعلمات يشعرن بالإحباط والتكبيل لعدم تمكنهن من تحقيق أهداف التربية، والأطفال بالقمع إذ لا يسمح لهم بالتعبير بلغتهم التي اعتادوها وألفوا ألفاظها وتركيبها منذ وحتى قبل ولادتهم.

صحيح أنه بدأ اليوم توجه نحو تعليم لغة ثانية باكرا، إذ أن أبحاث الدماغ الحديثة أكدت أن الطفل أقدر على تعلمها قبل عمر الست سنوات وهي بالتأكيد ضرورة من ضروريات العلم والتقدم , إلا أنها تبقى لغة ثانية فهناك دوما اللغة أولى التي تأتي أولا تليها الثانية.

إن هذا الالتباس في تعليم اللغة الأم واللغة الثانية في لبنان لا يؤثر فقط على قدرات الأطفال ونموهم وانما على التباس في انتمائهم مما يؤدي إلى زعزعة ثقتهم بأنفسهم وهذا شرط لنجاح عملية التعلم.

ربما كان هم نجاح طلابنا في الامتحانات الرسمية والدولية التي تؤهلهم للالتحاق بالجامعات الراقية والتي تدرس باللغة الأجنبية هو المحرك. وهذا ليس عذراً لإهمال جانب المواطنية في التربية فلا تناقض بين الاثنين بل تكامل واكتمال.

وربما كان هم الامتحان وراء حصر المربين في سعيهم لتنمية مهارات ومعلومات أكاديمية وإهمال لجانب أساسي في تربية شخصية متكاملة إلا وهو تنمية قيم علمية واجتماعية ووطنية. وكذلك لإكساب الطالب معايير علمية ووطنية تمكنهم من قياس الأحداث والأدوار.

أن تنمية القيم بكل المجالات باتت مهمة تربوية مؤسسية ولم تعد كالسابق مناطة بالأسرة. فأي جهدٍ تبذل في هذا الاتجاه.

المواطنية تبدأ من المدرسة. وإذا أردنا مواطناً يعي مسؤولياته تجاه مجتمعه ووطنه ويقوم بممارستها فعلياً ويعتبر التغيير جزءاً منها، من الضروري أن تبدأ تلك العملية في المدرسة. فالمدرسة مجتمع مصغر يمثل المعلمون والإدارة فيه سلطة الكبار ،.التي بدورها تمثل عملياً السلطة في المجتمع. فالمسؤولية تبدأ في المدرسة بكيفية تعامل الطلاب مع المؤسسة، والمساهمة في تنميتها من خلال هيئات طلابية تمثيلية، فيتعلم الديمقراطية من خلال عمليات انتخابية حرة لممثليه في تلك الهيئات، والتي بدورها تخطط للنشاطات وتشارك في صياغة القوانين التي يلتزم بها الجميع. كما يتعلم الخدمة العامة ويعتادها من خلال نشاطات للخدمة الاجتماعية، التي باتت في العديد من الدول المتقدمة جزءاً من البرامج المدرسية ينال عليها الطلاب علامات وتقدير. ويتعلم الطالب في المدرسة كيف يدافع عن قضيته ورأيه من خلال ممارسة نقاشات وحوارات منظمة يختلف بها مع الآخرين مستخدماً مهارات التفكير العلمي والنقدي بالإضافة إلى المعلومات والحجج التي يستند إليها.

إلا أن المدرسة وفي هذا المجال ايضاً لم تشكل حتى الآن المرجع في تنمية المواطنية بل تركت هذه التربية لمؤسسات المجتمع الأهلي وللظروف العامة لتكون مرجعاً للشباب.

فخلال حرب تموز الماضية برزت ظاهرة هامة تمثلت بتلك الإندفاعة غير المسبوقة من قبل الشباب والشابات من كافة الفئات، الذين قاموا بمبادرات خاصة أو من خلال جمعيات أهلية بالتطوع لمساندة المهجرين. تميز هؤلاء الشباب بحماسة غلفتها روح من العطاء المتدفق.

وقد تميزت هذه الظاهرة بميزات عدة جعلتها مدرسة في المواطنية من ناحية كما عبرت عن استعداد كبير لدى الشباب لتلبية حاجات الوطن والمواطن من ناحية أخرى. فقد تعلم هؤلاء المتطوعون المواطنية بالطريقة التربوية الأفعل، من خلال **الممارسة الفعلية المجبولة بدفق من العاطفة والحماسة**.

لقد رعى الشباب المتطوع المهجرين بغض النظر عن انتمائهم إلى فئة أخرى أوطائفة أخرى أومنطقة أخرى وإلى موقف سياسي آخر. فمارسوا الوحدة الوطنية وقبول الآخر بصمت وبعيداً عن الشعارات. تقول متطوعة في بكفيا: **"**لا أتفق سياسياً مع هذه الحرب، لكنني أشعر بعمق أننا جميعاً مستهدفون. ما عدت أفكر بطريقة مناطقية كما في زمن الحرب اللبنانية. أشعر بأن كل المناطق لنا**"** (الحياة 2006/7/31).

كما كان احتضان الشباب في المناطق كافة لهؤلاء المهجرين تلقائياً عفوياً ومن ثم تبلورت الصيغ لتنظيم العمل معهم. فلا هم طبقوا نظريات اجتماعية درسوها في مدارسهم ولا وضعوا خططاً دقيقة التزموا بها، بل على العكس بدأوا خطوة خطوة فكان يتطور عملهم ويزداد عددهم كلما زادت الحاجة. وكلما تنوعت المهمات تنوعت الوسائل والأطر. فتعلم الشباب المتطوع معنى المؤسسات من خلال إنشائها وتقسيم العمل والتكامل مع الآخرين من خلال تعدد المهمات وبالتالي التخصصات المطلوبة، وأهمية التنسيق والتعاون من خلال تلمس الحاجة إليهما لنجاح العمل، والمسؤولية الإجتماعية من خلال ممارستها فعلياً ومن خلال روح العطاء السائدة بين الجميعً.

وقد حمل الشباب معهم طرائق التفكير العصري ووسائله من استخدام أساسي للكمبيوتر لتنظيم العمل وللاتصال مع الآخرين لكسب الدعم وللتنسيق. كما حملوا معهم قيم الشباب الصافية فكان الالتزام بإنجاح العمل من أجل المهجرين وتلبية حاجاتهم هدف وحيد. وكان شعار " لنسد الثغرات" شعاراً يكاد يكون عاماً بين اللجان الناشئة والشباب المتطوع. فكان التعاون والتنسيق بل والتكامل مع الآخرين ، لجاناً وجمعيات وأفراد، هو الغالب وليس التنافس.

إن هذه التجربة وهذه الممارسة يعطينا كتربويين درساً هاماً، مفاده **أن المواطنية التي تغيب عن برامج مدارسنا هي ليست واجباً على أبنائنا وإنما هي حق لهم،** وأن تعلمها لا يأتي من خلال الكتب وإنما من خلال ممارستها فعلياُ. **إن من واجب المدرسة أن تقوم بمهمة التربية على المواطنية وليس أفضل من برامج الخدمة المجتمعية يقوم بها الطلاب لفئة تختلف عنهم اجتماعياً ومناطقياً ، تفرضها المدارس على طلابها كجزء من برنامجها الرسمي.** لقد وعت ذلك الدول المتقدمة واعتمدتها جزءاً أساسياً من برامجها التعليمية.

إنها أفضل وسيلة لتنمية المواطنة وتنشئة الأطفال والشباب على قبول الآخر واحترام المؤسسات وحب الوطن الجميل، الذي هو للجميع والعمل من أجل نموه وتألقه.

فما لم يفهم الطالب في المدرسة - مجتمعه المصغر معنى المسؤولية العامة ولم يتدرب على ممارستها وما لم يفهم معنى الديمقراطية ودوره في بنائها، فلن يقوم بذلك في مجتمعه عندما يصبح مواطناً.

فما لم نوفر للطالب كل هذا كيف تنمو لديه إرادة وثقة بالنفس، عندما يترك المدرسة ويصبح مواطناً، تحفزه على تحمل مسؤولياته وعلى اكتساب كفاءة للتعامل مع مجالات الحياة المختلفة وليمكن مجتمعنا من التحرر والنهوض. بمعنى آخر ماذا نسعى لأن يبقي معه عندما يتركنا. فالتربية بالتعريف الجميل " هي كل ما يبقى بعد أن ننسى كل ما درسناه ".

فهذا الذي يبقى ليس المعلومات التي يحفظها الطلاب ليودعوها ورقة الامتحان وانما نذراً يسيراً منها رأوا فيها ما يعنيهم وما يمكنهم الاستفادة منه في حياتهم. بل ما يبقى عادة مهارات ذهنية واجتماعية وجسدية، وتبقى قيم انغرست في نفوسهم وباتت تقود مسلكهم وتشكل لهم معياراً يقيمِّوا على أساسه مسلك الآخرين. ويبقى في ذاكرتهم معلماً أو معلمين تركوا في نفوسهم بصمة كبيرة أو صغيرة. ويحملون معهم شهادة للدخول إلى جامعة وأصدقاء غالباً ما يستمرون معهم مدى الحياة.

وإذا استعاد كل منا مرحلة المدرسة في حياته وحاول أن يتذكر معلميه. كم منهم يتذكر، ثلاثة، خمسة، أقل أو أكثر بقليل. انهم بكل الأحوال قلة من عشرات المعلمين الذين علمونا، وإذا تساءلنا لماذا نتذكر ذلك المعلم أو تلك المعلمة، نجد أن جانباً عاطفياً يحرك ذاكرتنا. إما أن نتذكر أحدهم بأسى أو بفرح. فذلك المعلم جعلنا نكره المادة التي يدرسها بسبب موقفه وطريقته السلبية. و ذلك المعلم أو المعلمة تركت بصمة إيجابية جعلتنا نستعيد كلماتها ونذكر مواقفها ونعتبرها نموذجاً وقدوة . فحماستها وحبها لمادتها وتحديها لعقلنا انعكس فينا حماسة وحباً لتلك المادة بل تحدياً لنا لتعلم المزيد. يصف أحد الطلاب الجامعيين المتفوقين أستاذ الرياضيات في مدرسته فيقول: " انه الأستاذ الذي لاشك أثر في، فقد كان يعلمنا الرياضيات بشغف ويربطه بكافة مناحي الحياة. فبت أرى الرياضيات أينما اتجهت." فالمعلم الذي يترك أثراً هو ذلك المعلم الذي يجبل علمه بأحاسيسه ويحب الطلاب والمادة ويكون لهم قدوة.

وهنا نأتي إلى التحدي الثاني الذي سأتطرق إليه في حديثي اليوم، هل نشكل نحن قدوة لطلابنا، وأي قدوة ؟ بل الأجدر بنا أن نسأل هل يمكن أن نكون قدوة لأبناء الجيل الجديد كما كان المعلم في تاريخنا القديم. وماذا يتطلب منا ذلك إذا ما أردنا أن نحقق قول علي بن أبي طالب " ربوا أولادكم على غير ما ربيتم فانهم قد خلقوا لزمان غير زمانكم." ولما كان التعليم من خلال القدوة هو الأبقى والأكثر أثراً، أليس يعني هذا أن علينا تحدي أنفسنا وتربيتنا لنكون للجيل الجديد قدوة تسهم في تربيتهم ليكونوا كما يجب أن يكونوا حاملي مشعل التحرر والنهوض. وربما كان التحدي أمامنا نحن الكبار مربين أم آباء يكمن في تطوير معرفتنا نحن بالوسائل الحديثة ومواكبتنا لتقدمها، الذي ينمو بوتيرة عالية. وذلك لنكون قادرين على أن نحافظ على علاقة الثقة بأبنائنا حتى لا نقول قدوة لهم، ونكون لهم جسراً للعبور إلى العصر الجديد متشبعين بثقافتهم الوطنية معتزين بهويتهم ومتطورين بمهاراتهم وقدراتهم. وحتى لا تنحصر علاقتنا بهم صراع بين أجيال وإنما تكامل ونمو يفيد منه مجتمعنا. لاسيما وأننا بحاجة إلى جهودهم، فهناك فئات كثيرة تحرم من فرصة الإطلاع أو التعامل مع وسائل الاتصال الحديثة، مما يزيد الشرخ بين الطبقات وليس بين الأجيال. مما يطرح قضية

تكافوء الفرص، ومسؤولية القادر تجاه الآخر غير القادر في مجتمعنا. وهذا لا يتم إلا حين ينمو داخل كل فرد الحس بالمسؤولية الاجتماعية والالتزام بالثقافة الوطنية. وعندما تصبح هذه سمة أبنائنا تطبع شخصياتهم المتطورة والنامية.

وتبقى هذه مسؤولية للتربية والمربين وتحدٍ لهم في آن.

وهنا لابد من أسئلة نطرحها على أنفسنا: هل يمكن لنا أن ننمي في طلابنا مهارات التفكير العلمي أو النقدي أو الإبداعي وفي الوقت نفسه الحس العالي بالانتماء للوطن ما لم نكن نتحلى بالاثنين معاً؟ هل يمكن أن ننمي فيهم الإرادة و الثقة بالنفس ما لم نكن نمتلكها؟ بل كيف يمكن أن نجاري مصادر المعلومات المتقدمة مالم نكن نحن على دراية بالتعامل بها ونمارسها مع طلابنا ليشعروا بأن معلمهم جزء من العصر الذي يسعى إلى دخوله وبقوة ويتمكن من إدارته بكفاءة. وكيف يمكن للطالب أن يشعر بالاعتزاز بثقافته وهويته الوطنية مالم يعكس المعلم ذلك في تصرفه؟ فإذا أردنا أن يرغب طلابنا أن يستزيدوا من المعرفة حول تاريخهم وواقعهم وقضاياهم ويطوروا رؤيا لمستقبلهم، مالم ينموا ذلك معهم في المدرسة من خلال قدوة متحمسة هي المعلمة. وإذا كان هدفنا التعليم المستمر وهو شعار العصر عليتا أن نستمر بالتعليم وأن يلمس طلابنا ذلك. وإذا أردنا لهم أن يستمتعوا بمتعة القراءة فعلينا أن نمارس القراءة أيضاً بشكل مستمر وأن يلمس ذلك طلابنا.

المعلم في الصف يمثل السلطة في مجتمع مصغر وكيفية تعامل الطالب معها يهيئ مواطن الغد لكيفية تعامله كمواطن مع السلطة في مجتمعه.

كيف يمكن أن تنمو لدى الطالب مهارات التفكير العلمي والنقدي والإبداعي المستقل مالم يسمح له بمناقشة المعلم حتى لو أخطأ. وهل يقبل المعلم أن يقال له انك أخطأت ؟ بل هل يسمح المعلم للطالب أن يكون له موقفاً مغايراً لموقفه ورأياً مخالفاً لرأيه؟

فما لم يمارس الطالب حقه في قول الحقيقة كما يراها حتى لو أخطأ، ويشير بإصبعه على الخطأ أينما وجده، فمن الصعب عليه أن يقوم بأي عملية تصحيح في نفسه أو في مدرسته أو في مجتمعه. فمن الصعب أن نقول للطالب فكر وحلل وانتقد فقط في تعاملك مع المواد الأكاديمية، في الأدب والعلوم، أما في الحياة فلا. فازدواجية المعايير هنا تربك الطالب وتجعله يتقوقع على ذاته ويتخلى عن مبادراته ليحفظ رأسه أي علامته داخل الصف ومن ثم مكانته خارجها. بل إن توجيهه يتركز نحو التزامه برضى السلطان في المدرسة وخارجها في المعمل أو الشركة أو في الوطن. وهذا بدوره من شأنه أن يدحض أي مبادرة للتجديد تكون غير متوافقة مع السلطة ومؤسساتها. وهنا فالمعلم المبادر المحفز على المبادرة والمشجع على نمو شخصية متماسكة تربط عملها بحياتها ومهارات وقيم ذلك العلم بمسلكها هو المعلم أو المعلمة الأكثر أثراً. ولا شك أن هذا يبدأ بكيفية تعامل الطالب مع المعلم كمصدر للسلطة ومدى قرب أو بعد المسافة بينهما.

إذاً هناك فجوة مضاعفة بين المعلم والطالب موجودة بطبيعة الحال، هي فجوة الفارق بين الأجيال وفجوة المسافة بين السلطة والناس. والتحدي أمام المعلم ليكون قدوة ذات أثر إيجابي في نمو مواطن عربي متقدم، أن يجهد لردم هذه الفجوة بالعمل علىتطويرنفسه، باتجاه الزمن الحديث. والتطوير هنا يشمل جوانب عدة، تشمل الجانب الثقافي العام من حيث متابعة ما أمكن الأحداث السياسية والعلمية والثقافية في بلده وفي العالم. والجانب العلمي، من حيث متابعة أحدث الاكتشافات أو التطورات في حقل تخصصه، والجانب المهني من حيث متابعة آخر الدراسات والتجارب في التربية وما توصلت إليه من طرائق

حديثة، والهدف دوماً ليس الكمال وانما كما قالت مديرة لتجربة تربوية عربية ناجحة، هدفنا أن نكون في كل عام " أفضل من العام السابق."

وما تجربتكم في هذا اليوم التربوي إلا خطوة هامة في هذا السياق. إنها تجربة تربوية قيمة أهنئكم عليها ويسعدني دوماً المشاركة في فعالياتها وأن أكون عوناً لها ما استطعت.
وأشكر دعوتكم لي وأتمنى لمؤسستكم التربوية النجاح والتقدم.